

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٢)



العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق

خالد بن عثمان السبت

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الأول

دار عطاءات العلم

دار ابن حزم

الهذلي[1]:

وعليهما مَسْرُودتان قَضَاهُما داودُ أو صَنَعُ السوابِغِ تُبَّعُ

قضاهما: يعني صنعهما.

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (إن) هي النافية، والألف واللام في (الحكم) هي للاستغراق، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[2]؛ لأن سبب نزول الآية في الحكم الكوني القدري، حيث قالوا له: عجل لنا العذاب، وأنزل علينا الآيات. فأخبرهم الله أن ذلك الحكم الكوني القدري من تعجيل العذاب وإنزال الآيات إنما هو لله وحده، هو الذي بيده ذلك، وعموم الآية يقتضي أن الحكم من حيث هو: هو لله (جل وعلا) وحده، كذلك الحكم الشرعي له وحده. ويدل على دخول الحكم الشرعي: أنه قال في الآية: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ لأن (الفاصلين) جمع (الفاصل)، وهو الذي يفصل الخصوم، وينصف بينها، ويُحقِّق الحق بينها. ولا شك أن الحكم من حيث هو حكم سواء كان شرعياً أو قدرياً فإنه لله وحده، فالأحكام القدرية له، لا يقع تحريك ولا تسكين، ولا خير ولا شر، ولا شيء كائن ما كان إلا بحكمه (جل وعلا) وقدرته ومشيئته. وكذلك الأحكام الشرعية، لا تشريع لأحد، ولا تحليل لأحد إلا له (جل وعلا) وحده، فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله؛ لأنه من المعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا،

---

(١) البيت في البحر المحيط (٤/ ١٤٣)، الدر المصون (٢/ ٨٦).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ١٩٨، ٢١٠، ٢٢٠)، شرح الكوكب المنير (٣/ ١٧٧)، قواعد التفسير (٢/ ٥٩٣).

والسلطة الحاكمة على السماوات والأرض هي التي لها الأمر والنهي والتشريع. فالتشريع لرب العالمين ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧] ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦] فالحاكم هو الله، والتشريع تشريع الله، والنبي ﷺ مُبلِّغ عن الله شرعه لخلقه، والمشرع هو الخالق جل وعلا.

ويُفهم من هذا أن من زيَّن له الشيطان أن يكون مُشرِّعاً يُحلل ويُحرم، ويضع النُّظم والقوانين ليُحكِّمها في دماء الناس وأموال الناس وأعراضهم وعقولهم: أن هذا متمرد على نظام السماء، يُحاول أن يجعل لنفسه خصوصية خالق السماوات والأرض، عُتواً وتمرداً علىٰ الله، فهو كافر، وقد دلّ القرآن العظيم في آيات كثيرة أن من يتبع نظماً وقوانين وضعية شرّعها الشيطان علىٰ ألسنة أوليائه مُدعياً أن تشريع خالق السماوات والأرض لا يصلح لتنظيم العالم، ولا يُساير التطور، فمن يرىٰ هذا، ويرىٰ نظام إبليس هو الذي يقوم بمصالح البشر، ونظام خالق السماوات والأرض ـ الذي خلق هذا الكون وهو أعلم بمصالحه ـ أنه لا يُساير التطور، ولا ينظم علاقات الدنيا علىٰ الوجه الذي ينبغي: فهذا لا شك بين أهل العلم في أنه كافر كفراً بواحاً مخرجاً عن دين الإسلام[1]، والآيات القرآنية الدالة علىٰ هذا كثيرة جداً، من ذلك ما بيناه مراراً: أن إبليس عليه لعنة الله، لما جاء تلامذته وإخوانه من أهل مكة، وأراد أن يُهيىء لهم وحي الشياطين ليجادلوا به النبي ﷺ، قال لهم: سلوا محمداً

(١) انظر: الأضواء (٧/ ١٦٢).

عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فلما أخبرهم أن الله هو الذي قتلها، قالوا له من وحي الشيطان: ما ذبحتموه بأيديكم ــ يعنون المذكاة ــ تقولون: حلال، وطاهر، وطيب، مستلذ، وما ذبحه الله بيده الكريمة ــ يعنون الميتة، أن الله قتلها ــ تقولون: هو حرام، ميتة، مستقذر، فأنتم إذاً أحسن من الله!! وأنزل الله في وحي الشياطين جواباً لنبيه عنه[1] قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني الميتة، وإن زعم أولياء الشيطان أنها ذبيحة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، وخروج عن طاعة الله، ثم قال ــ وهو محل الشاهد ــ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ وإن أطعتموهم في تحليل الميتة إنكم لمشركون.

اعلم أن تحليل الميتة وتحريمها ليس عقيدة من العقائد، ولا أصلاً من الأصول، وإنما هو فرع من الفروع. مضغة لحم شرّع الله علىٰ لسان نبيه تحريمها؛ لأنها ماتت ولم يُذكر عليها اسم الله، وشرّع إبليس علىٰ لسان أوليائه تحليلها، فهذا نظام إبليس، وهو تحليل الميتة، وهذا نظام خالق السماوات والأرض الذي شرعه على لسان نبيه. الله يقول: هذه ماتت حتف أنفها، ولم تُذَك ولم يُذكر اسم الله عليها. والشيطان يُشرّع بفلسفته ويقول: هذه ذبيحة الله، وما ذبح الله أطهر وأحل مما ذبحتموه بأيديكم، والله يقول بالمقارنة بين تشريع الشيطان وتشريع الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ إن أطعتموهم في تحليل الميتة الذي هو تشريع إبليس، تاركين تحليل وتشريع الله

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٧ ــ ٨٢) الأضواء (٧/ ١٦٩)، وسيأتي تخريجه عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

ــ وهو تحريمها ــ إنكم لمشركون.

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية(١) مثال لحذف لام توطئة القسم، قالوا: والأصل: (ولئن أطعتموهم) فحُذفت اللام الموطئة للقسم. قالوا: والقرينة علىٰ لام القسم: أنه لو كان الشرط وحده ليس معه قَسَم لاقترنت الجملة بالفاء، لقال: «وإن أطعتموهم فإنكم لمشركون» فلمّا لم تقترن بالفاء علمنا أن عدم اقترانها بالفاء لأنها جواب القسم المقدر المحذوفة لامه، لقرينة عدم الفاء؛ ولأن الشرط إذا جاء معه القسم ــ يكون القسم قبله ــ ويكون الجواب والقسم، ويُحذف جواب الشرط، كما هو معروف في علم النحو(٢).

وإذا تقرر هذا، فقد أقسم الله ــ كما قلنا ــ في هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان واتبع تحليله مخالفاً لتشريع الله أنه مشرك، وهذا الشرك شرك ربوبية؛ لأن التشريع، والأمر، والنهي للرب الخالق، فالشيطان أراد أن يشارك الله في السُلطة العليا، والأمر والنهي، فمن اتبعه فكأنه جعله رباً، وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ هو شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام، وسيوبخ

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢١٣)، الدر المصون (٥/ ١٣٢)، الأضواء (٧/ ١٧٠).

(٢) المراد: أنه إذا اجتمع شرط وقسم، وكان القسم سابقاً على الشرط، فالجواب للقسم، وجواب الشرط يكون محذوفاً؛ لأن الجواب في هذه الحالة للسابق منهما. انظر: البحر المحيط (٤/ ٣٤٥)، ضياء السالك (٤/ ٥٣)، التوضيح والتكميل (٢/ ٣٢١)، النحو الوافي (٤/ ٤٨٦)، الدر المصون (٥/ ٣٨٥).

الله مرتكبه على رؤوس الأشهاد، كما بيّنه الله في سورة يس في قوله: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس: ٦٠] عبادتهم للشيطان التي عهد الله إليهم في دار الدنيا النهي عنها ليس معناها أنهم يسجدون للشيطان، ولا يركعون له، ولا يصومون، ولا يصلون له، وإنما هو اتباعهم تشاريعه ونظمه، تاركين تشريع الله ونظامه؛ ولذا قال: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ﴾ واتبعوا تشريعي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] ثم بيّن (جل وعلا) كثرة من اتبع نظام الشيطان واختار تشريعه ودينه عن تشريع الله، وبيّن مصيرهم، قال: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: آية ٦٢] أليست عندكم عقول تعلمون أن التشريع هو تشريع الله الذي خلقكم فتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتتركوا تشريع الشيطان؛ لأن كله كفر ومعاص ــ والعياذ بالله ــ ثم بين مصير من كان يتبع نظام الشيطان ويترك نظام الله فقال: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: الآيتان ٦٣ ــ ٦٥] إلىٰ آخر الآيات؛ ولأجل هذا المعنىٰ قال نبي الله إبراهيم الخليل الذي قال له الله: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وشهد له في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: آية ٣٧]، وبقوله له: ﴿ ۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: آية ١٢٤]، قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: آية ٤٤] عبادته للشيطان التي ينهاه عنها ليست السجود له، ولا الركوع، ولا الصيام، وإنما هي اتباع نظامه من عبادة الأصنام،

ومعاصي الله (جل وعلا)؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: لا يعبدون إلا الشيطان؛ لأن اتباعهم لتشريعه ونظامه وتركهم تشريع الله ونظامه هو عبادتهم له؛ ولذا سمى الله (تبارك وتعالىٰ) في هذه السورة ــ سورة الأنعام ــ سمى فيها الذين يُطاعون في معاصي الله، سماهم (شركاء) حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لمَّا زينوا لهم الحرام واتبعوهم فيه. وقد صح عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه سأل النبي ﷺ عن آية التوبة ــ وكان عدي هذا نصرانياً ــ قال له: يا نبي الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ يعني أنهم لم يسجدوا، ولم يركعوا لهم، ولم يصوموا لهم. قال له ﷺ: **«ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله، فاتبعوهم؟»** قال: بلىٰ. قال: **«بذلك اتخذوهم أرباباً»**(١).

---

(١) أخرجه الترمذي، في التفسير، باب: ومن سورة التوبة، حديث رقم: (٣٠٩٥)، (٥/٢٧٨)، وعقَّبه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه! إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث». اهـ.

كما أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/١٠٦)، والطبراني في الكبير (١٧/٩٢)، والبيهقي في السنن (١٠/١١٦)، وابن جرير (١٤/٢٠٩ ــ ٢١١)، وقال عنه شيخ الإسلام (وهو حديث حسن طويل) (الإيمان ص ٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣/٥٦)، وغاية المرام ص ١٩، والحديث له شواهد يتقوى بها، والله أعلم.

وهو نصٌّ في أن من يتبع تشريع الشيطان تاركاً تشريع الله، أنه اتخذ الشيطان رباً، ومعنىٰ هذا واضح؛ لأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم لا يكون إلا للأعظم الذي بيده كل شيء، فإذا جعله لغير الله فقد أعطي منصب الربوبية الكامل لغير الله (جل وعلا)، وجعله رباً غير الله، وبيّن الله (تعالى) في سورة النساء أن الذي يريد أن يُحَكِّم قوانين الشيطان دون نظام الله، ويَدَّعي مع ذلك أنه مؤمن، أن دعواه هذه كاذبة بعيدة، تستحق أن يُتعجب منها، والآية التي بيّن الله بها هذا هي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠] والتحاكم إلىٰ الطاغوت يشمل كل تحاكم إلىٰ غير ما أنزله الله، فقوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ صيغة يُعجِّب الله بها نبيه، يقول: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ كيف يزعمون الإيمان، ومع ذا يريدون التحاكم للطاغوت، فهذا شيء لا يجتمع!! ولذا عجَّب الله منه نبيه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ فالواقع أن خالق السماوات والأرض له الحكم كله، له الحكم الكوني القدري، وله الحكم الشرعي، فهو الذي يفعل ما يشاء، ولا يكون خيراً ولا قدراً إلا ما شاءه جل وعلا. وكذلك له الحكم الشرعي، فهو الذي يأمر، وهو الذي ينهىٰ، وهو الذي يُحلل، وهو الذي يُحرم، فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تحليل ولا تحريم، ولا شرع دين ولا نظام. وقد بينّا أن من ادعىٰ أنه يملك هذه السلطة ــ وهي سلطة التشريع ــ أنه جعل نفسه له أن يأخذ حقوق الله الخالصة له؛ لأجل ربوبيته فيجعلها لنفسه.

وهذا الذي ذكرنا ــ أن اتباع نظام إبليس، وترك نظام خالق السماوات والأرض ــ أنه كفر، قد بينا في هذه الدروس مراراً أن النظم ليست كلها على وتيرة واحدة، بل هي نوعان: نظام إداري، ونظام شرعي.

أما النظام الإداري الذي لا يخالف نصوص الشرع، بل قد تشهد أصول الشرع للمصلحة فيه، فهذا ليس أحد يقول: إنه كفر، ولا حرام، والصحابة (رضي الله عنهم) جعلوا بعد النبي ﷺ أشياء كثيرة من هذا، ولم يقع بينهم فيها خلاف، بيّنّا بعض أمثلتها، من ذلك أنه في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن الجُند مكتوباً في ديوان، فمن أراد أن يتخلف قد يتخلف ولا يُطّلع على تخلفه إلا بعد زمن؛ ولأجل ذلك ثبت أن النبي ﷺ لما تخلف عنه ــ في غزوة تبوك ــ كعب بن مالك (رضي الله عنه) لم يتفقد كعباً، ولم يسأل عنه حتى وصل تبوك[1]، ولم يَدْرِ أهو موجود في الجيش أو غير موجود فيه؛ لأنهم لم يكن عندهم ديوان، وكذلك زمن أبي بكر، فلما كانت الخلافة إلى عمر كتب أسماء الجُند في ديوان، فدوّن جميع أسماء المقاتلين في ديوان[2]، فصار إذا تخلف واحد عُرف من وقته أنه

(١) قصة تخلف كعب (رضي الله عنه) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب: إذا تصدق أو وقف بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز، حديث رقم: (٢٧٥٧)، (٥/ ٣٨٦)، وأخرجها في مواضع متفرقة. انظر: الأحاديث (٢٩٤٧)، (٢٩٤٨)، (٢٩٤٩)، (٢٩٥٠)، (٣٠٨٨)، (٣٥٥٦)، (٣٨٨٩)، (٣٩٥١)، (٤٤١٨)، (٤٦٧٣)، (٤٦٧٦)، (٤٦٧٧)، (٤٦٧٨)، (٦٢٥٥)، (٦٦٩٠)، (٧٢٢٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم: (٢٧٦٩)، (٤/ ٢١٢٠).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٨/ ٣١٩)، التراتيب الإدارية (١/ ٢٢٥).

تخلف، وعرف مُقَاتِلَة كل جهة من الجهات، وجعل كل جهة في جهتهم يحمونها مما يكون إليهم، وصارت كل جهة أهلها أهل ديوان، فكتب أسماء الجند في ديوان. هذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ ولا أبو بكر، ولكنها مصلحة محضة لا تخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهي مصلحة عملها عمر بن الخطاب، ولم يخالف أحد من الصحابة مع كثرتهم وعلمهم. ومن هذا المعنىٰ: أن زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن عند المسلمين سجن يقفون فيه الجُناة، ولا يسجنون فيه، فلما كانت الخلافة لعمر (رضي الله عنه) اشترىٰ دار صفوان بن أمية في مكة، وجعلها سجناً يقف فيه الناس حتى ينظر في أمورهم، وربما سجن به بعض المذنبين[1]. فهذا السجن هو مصلحة إدارية لم تكن في زمن النبي ﷺ ولا أبي بكر، والقصد مطلق التمثيل.

فهذا النوع من ضبط الأمور وتنظيم الإدارة بما لا يخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهذا لا نقول: إنه كفر، ولا نقول: إنه حرام. وهو من المصالح المرسلة التي عمل بها الصحابة، ولم يخالف منهم أحد، وكان مالك يجعل هذا النوع أصلاً من أصول مذهبه[2]، وهو (المصالح المرسلة) قال: لأن الصحابة أجمعوا عليه؛ لأن أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ أبو بكر، عمل بالمصلحة المرسلة لما حضرته الوفاة ـ يعني باحتضار الوفاة، في ذلك الوقت

---

(١) انظر: البخاري، الخصومات، باب الربط والحبس في الحرم (٥/ ٧٥)، تغليق التعليق (٣/ ٣٢٦)، أخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٦٥، ٢٦٣)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٢٢)، التراتيب الإدارية (١/ ٢٩٨).

(٢) انظر: نشر الورود (٢/ ٥٠٥).

يتوب المجرم، وينيب الظالم، أحرى أبو بكر (رضي الله عنه)، فهذا فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: آية ٢٤] لمّا عاين الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: آية ٩٠]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: آية ٨٤] أحرى أبو بكر في آخر لحظة من حياته ـ عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كتب أبي وصيته في سطرين: هذا ما أوصى ابن أبي قحافة: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به، وإن يَجُرْ فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: آية ٢٢٧][1]. لم ترد آية في كتاب الله، ولا نص من سنة رسول الله لأبي بكر أن ينيب عمر على الناس، ولكن رأىٰ المصلحة تقتضي ذلك، ففعل هذه المصلحة، ولم ينكر عليه أحد من الناس، فتوليته له من المصلحة المرسلة[2]، لا من قياس العهد على العقد، كما قال به بعض الناس.

والحاصل أن النظام نوعان: نظام لا يتعرض لقواعد الشرع، وإنما هو تنظيم مصلحي لا يتعرض للقواعد، فهذا هو الذي ذكرنا أنه لا بأس به، وأن الصحابة فعلوه.

والثاني: نظام تشريعي، وهو الذي كنا نتكلم عليه ونورد فيه الآيات، كالذي يقول: إن الأُنثىٰ تَمتُّ بالقرابة التي يَمتّ بها الذكر، فتفضيله عليها ظلم وجور. وكالذي يقول: إن تعدد الزوجات يجعل الرجل دائماً في شغب، ولو أخذ واحدة لكان معها في خفض ودعة،

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ١٤٢)، عيون الأخبار (١/ ١٤)، مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٢٠).

(٢) انظر: نثر الورود (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧).

وأن الشغب دائم لا يزول، وأن هذا أمر لا يصلح في الاجتماع. والذي يقول: إن قطع اليد عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في النظم التي يعامل بها الإنسان. وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، مع أن كل هذه الأمور حكمته بالغة، وسنبين ـ إن شاء الله ـ حِكَم الجميع إن مررنا على الآيات التي هي بها.

فهذا النوع من النظام هو الضلال والكفر، وقد بيّن الله أن من يقول: إن الأنثىٰ كالذكر في الميراث، أنه ضال، كما قال (جل وعلا) في آية الصيف، الآية الأخيرة من سورة النساء: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: آية ١٧٦] يبين لكم هذا البيان كراهة أن تقولوا: هما سواء في الميراث فتضلوا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾.

﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]: يقص الحق كقوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: آية ٣] و ﴿يقْضِ الحقَّ﴾ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [غافر: آية ٢٠] ﴿وَهُوَ﴾ (جل وعلا) ﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ الذين يفصلون بين الخصوم، وسيفصل بين الخلائق يوم القيامة، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٢٥﴾ [السجدة: آية ٢٥].

﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾ [الأنعام: آية ٥٨].

هذا أمر من الله لنبيه أن يقول للكفار الذين يستعجلون بالعذاب

[الأنعام: آية ٥٢] وأنه ﷺ لما نُهي عن طردهم كان يجلس معهم، فإذا كانت له الحاجة قام عنهم، فأنزل الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: آية ٢٨] حتى صاروا يقولون: قوموا عن النبي ﷺ ليمكنه أن يقوم لحاجته. ولما أجرى الله العادة بأن أول من يكذب الرسل ويُناصبهم بالعداوة الرؤساء المترفون، قال هنا فيهم: ﴿وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾.

[١٠/أ] / ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾ [الأنعام: آية ٩٤].

لما بين الله (جل وعلا) في هذه الآيات من سورة الأنعام أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى الوحي كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله، وبين الله (جل وعلا) أن هؤلاء الظالمين الذين قالوا هذه المقالات أنهم إذا حضرتهم الوفاة بسطت الملائكة أيديهم إليهم بالعذاب والنكال، وقالوا لهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] بيَّن حالتهم التي يُبْعثون عليها، وشدة ضعفهم وعدم قوتهم التي كانت هي سبب تمردهم في الدنيا.

وقوله في هذه الآيات: ﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ يدخل في معناه: من ادعى أنه ينظم للبشرية ما يغنيها عن نظام الله (جل وعلا) الذي وضعه، ومن اتبع هذا ــ والعياذ بالله ــ فقد اتبع أحداً لا أظلم في الدنيا منه ــ والعياذ بالله ــ فالذي ينزله الله لا يقدر أحدٌ على أن ينزل مثله. ومن ادعى أنه ينزل مثله صَرَّح الله في هذه الآيات الكريمة أنه لا أحد البتَّة أظلم منه.

وبهذا تعلمون أن الذين يتنطعون ويدَّعون أنهم ينظمون للبشرية نظاماً أحسن مما أنزل الله، أنهم يدخلون في هذه الآية، وأن الملائكة ستضربهم عند الموت. ستضرب وجوههم وأدبارهم، وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ومعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا. فالسلطة العليا الحاكمة على كل شيء هي التي لها الأمر والنهي. فهؤلاء الذين يتمردون على نظام السماء، ويحاولون قلب الحكم السماوي لو جاء أحد يريد أن يقلب الحكم عليهم ويحكم بغير ما شَرَّعوا لقتلوه شرَّ قتلة، مع أنهم يتجاهرون بأن نظام خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير، الذي نظّم فيه علاقات الدنيا، وأوضح فيه طرق الخير في الدنيا والآخرة، وأتبع فيه متطلبات الروح بالتربية والتهذيب، ومتطلبات الجسم على الوجوه الشرعية، يقولون: إنه لا يصلح، ولا ينظم الحياة، ولا يساير التطور الحالي للحياة. الذين يقولون هذا والذين يتبعونهم، لا شك أنهم داخلون في هذا الوعيد في قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾. لأن من أعظم ما أنزله الله: وَضْعُ النظام البشري الذي يمشي عليه البشر ليؤاخي بينهم، وينشر بينهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق الشرعية.

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً كثيرة[1]: أن من ادَّعى أن هنالك تنظيماً ينظم الحياة البشرية في الدنيا مثل تنظيم الله أو أحسن من تنظيم الله، أن هذه الدعوى كفر بواح، لا يشك فيه من له أدنى عقل، والآيات المُصَرِّحة بذلك بإيضاح كثيرة في القرآن العظيم[2]،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٤٣٩).

منها: أن الشيطان لما جاء تلامذته من كفار قريش، وجاءهم بوحي الشياطين، وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح مَيِّتَة، من هو الذي قتلها؟ فلما أجاب وقال: «الله قتلها». أوحى إليهم الشيطان أن قالوا: ما ذبحتموه بأيديكم ــ يعنون المُذَكَّى ــ تقولون: حلال. وما ذبحه الله بيده الكريمة ــ يعنون الميتة ــ تقولون: هو حرام؟ فأنتم إذاً أحسن من الله؛ حيث كانت ذبيحتكم أحلّ من ذبيحته[1]!! فهذه قضية اختلف الحق والباطل فيها في مضغةٍ لحم شاةٍ ماتت ولم تُذَكَّ، فجاء تشريع الشيطان بأنها: حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، وجاء نظام الإسلام، وتشريع السماء، على لسان سيد الخلق: أنها حرام؛ لأنها لم تُذَك، ولم يُذكر عليها اسم الله، فصرّح الله (جلَّ وعلا) بأن الذين يتبعون قانون إبليس، ونظام الشيطان، ويحلّلون لحم الميتة الذي حرمه نظام السماء، أنهم كفرة مشركون؛ ولذا قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ يجادلوهم بوحي الشيطان: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾. ثم قال ــ وهو محل الشاهد ــ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتموهم في نظام إبليس في تحليل تلك اللحمة التي حللها إبليس على لسان أتباعه ــ بدعوى شبهة أنها ذبيحة الله، وحرمها الله في تشريعه السماوي على لسان نبيه ﷺ ــ صرح الله بأن من اتبع نظام إبليس وأحل تلك الميتة، وترك نظام الله الذي هو تحريمها: أنه مشرك بالله،

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٨)، ابن كثير (٢/ ١٧١).

كما قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ لأن الرب هو الذي يحلل ويحرم، فمن اتبعت تحريمه وتحليله فقد جعلته ربك. وهذا الشرك: شرك طاعة، ونظام، وقانون في التحريم والتحليل، وسيوبِّخ الله مرتكبيه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم الفظيع الشنيع من النار؛ وذلك أن الله يقول لمن كانوا يتبعون نُظم الشيطان وقوانينه التي شرعها على ألسنة أوليائه، تاركين نظام السماء الذي أنزله خالق الخلق على لسان نبيه، يقول الله لهم: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ [يس: الآية ٦٠] يعني: باتباع نظامه وتشريعه وقانونه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والجِبِلُّ الكثير الذي أضله: هم الذين يتبعون تزيينه في المعاصي، وتشريعه، ونظامه المخالف لتشريع السماء، ونظام خالق الكون ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لا عقول لكم حيث تتبعون نظام إبليس، وتتركون نظام خالقكم (جل وعلا)، ثم قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٥] وقال الله (جل وعلا) عن نبيه إبراهيم أنه يقول لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يعني بقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تتبع نظامه وتشريعه بالكفر والمعاصي، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: آية ٤٤].

وقد سمّى الله (جل وعلا) الذين يُطاعون في معصية الله، سماهم (شركاء) في هذه السورة الكريمة، سورة الأنعام، في قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لمَّا

أطاعوهم في التحليل من قتل الأولاد، وقال جل وعلا: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وعبادتهم له هي: اتباع تشريعه، وقد بين النبي ﷺ هذا البيان لما سأله عدي بن حاتم (رضي الله عنه) عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١] قال عدي للنبي: كيف اتخذوهم أرباباً؟. قال: «**ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟**» قال: بلى، قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**»(١).

وقد صرّح الله (جل وعلا) في سورة النساء أن من يدعي الإسلام ويزعم أنه مؤمن، ثم يريد التحاكم إلى الطاغوت من تشاريع الشيطان، أن دعواه للإيمان مع ذلك بالغة من الكذب والبطلان ما يستوجب التعجب منها، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠].

والآيات بمثل هذا كثيرة، وعلى كل حال فعلينا جميعاً نحن المسلمين أن نعرف ونعتقد أنه لا تشريع إلا لخالق السماء والأرض، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، والدين ما شرعه الله، والأمر أمر الله، والنهي نهي الله، والحسن ما حسّنه الله، والقبيح ما قبّحه الله، وكل نظام وتشريع غير تشريع السماء وبال وويل على صاحبه ـ والعياذ بالله جل وعلا ـ ولذا أولئك يدخلون في قوله هنا: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.